محادثة

بين الأسد البريطانى والدب الروسى

الأسد : — ألا يحزنك أيها الدب أن ترى ما آل إليه أمرنا فى الغابة من خلاف بعد وفاق ، وتباعد بعد تقارب ، ومعسرة بعد ميسرة ، وشك وحذر وتربص ، بعد إيمان وثقة وتفاهم ساد بيننا فى أثناء عراكنا المشترك مع الوحش حتى أمكننا التغلب عليه فى النهاية ؟ وجزى الله الشدائد كل خير ؛ فقد علمتنا أن نكون معاً فى الحرب ، ولعلها أن تعلمنا كيف نتفق فى السلم .

هيا أيها الدب ! تعال إلى كلمة سواء بينى وبينك ألا نؤمن إلا بالحق والحرية والتعاون على نشر السلام فى ربوع الغابة جميعا .

الدب : — إننى أيها الأسد لست من فصيلتك ، وليس بينى وبينك من المشاركة فى الصفات أو الصلات أو الطباع ما يساعد على إنشاء هذا التآلف الذى تنشده . وقد علّمنا آباؤنا وأجدادنا طوال القرنين الماضيين أن نكرهك ونمقتك ونكون على حذر دائم منك . وإذا كانت ظروف الحياة أو الموت قد أكرهتنا أن نشترك معاً فى الحرب الأخيرة زهاء أربع سنوات أو أكثر قليلا ، فلاتنس أنك شننت علينا فى منتصف القرن الماضى حرباً شعواء يذكرها التاريخ باسم حرب القرم ، نسبة إلى شبه الجزيرة التى دارت فيها رحى معاركها ، وهى المكان نفسه الذى اعتصم فيه الوحش فى الحرب الأخيرة . وقد ألّبتم علينا فى تلك الحرب دول أوربا ، فأرسلت قواتها تؤازر سلطان تركيا ضدنا وضد الصليب الذى طالما تشدقتم بدعوى نصرته . وكنا بمفردنا أمام عصابتكم تلك ، فانهزمنا وقاسينا من أهوال الحرب ألواناً لا يشبهها إلا بعض ما قاسيناه أخيراً . وفى النهاية لم يسعنا سوى طلب الصلح ، فأمليتم علينا شروطاً مذلة مالبثنا أن

تحررنا منها وأنتم راغمون . على أن هذا لم يكن آخر عهدكم بمناوأتنا ؛ فقد دابتم على الكيد لنا ومعارضة مصالحنا بكل ما أوتيتم من قوة .

أنسيت أيها الأسد أنكم أنتم الذين رفعوا سعر التنين اليابانى فى السوق الدولية بتحالفكم مع اليابان سنة ١٩٠٢ ، وأن هذه المحالفة كانت مقدمة للحرب الروسية اليابانية التى قضت على سمعتنا الحربية والبحرية وأذلتنا فى نظر الدول جميعاً . وأقسم أنه لولا هذه الهزيمة وظهور قوة ألمانيا البحرية منافسة لكم فى أوائل هذا القرن ، مارضيتم أن تكفّوا عن مناوأتنا أو تأخذونا إلى جانبكم فى الحرب الماضية .

وهل يمكن أن ننسى ما قاسيناه على أيديكم أثر نورسا الكبرى وبعد الحرب العالمية الأولى من طرد وحرمان وإذلال وعدوان لا تزال آثاره ملموسة باقية إلى وقتنا هذا ؟ تلك حقائق قد وعاها العقل الروسى واختزنها فى أعماق أغواره فلا سبيل إلى نسيانها ألبتة .

لا أيها الأسد ! لاتحاول أن تخدعنا . إن التاريخ والسياسة قد تآمرا على إخفاق حركة التفاهم بيننا .

الأسد : — لاتنس أيها الدب أن الزمان قلّب ، وأن السياسة لاتسير على وتيرة واحدة ، وأن الحكيم من لاءم بين سياسته وحاجات زمانه ، واحتاط فى يومه لمستقبله . وإذا كانت الظروف فى الماضى قد أكرهتنا على محاربتكم ذات مرة فقد علمتنا الحرب الأخيرة فائدة التعاون بيننا وبينكم . ولا إخالك تنكر مدى المساعدة التى قدّمناها لك أنا وابن عمى الأمريكى ضد الوحش الذى أنشب أظفاره فى عنقك ، وكاد يمزق جسمك أشلاء .

الدب : — تلك أكذوبة لم نسمع بها ولم نقرأ عنها . إنما قرأنا وتحدثت الركبان أن الوحش قد طاردكم حتى طردكم من أوربا ، وأنزل بكم فى دنكرك هزيمة منكرة لو أنه تابعها إلى عرينكم لبادت فصيلتكم ولدمرت جزيرتكم تدميرا .

الأسد : — ليس من ذنبنا أن تستهزئ بكم حكومتكم وصحافتكم ، فتخفى عنكم الحقائق الواقعة ، ولا تطلعكم من حقائق الموقف الدولى إلا على ما يوافق

أغراض زعمائكم . أما قولك إن الوحش قد هدد فصيلتنا بالانقراض فمردود عليك ؛ فقد كان موقفه معنا مجرد تهديد أجوف . أما موقفه معكم فكان حقيقة واقعة ؛ فقد داس أراضيكم وتحكم فى مواردكم وأخضع لسلطانه جزءاً من بلادكم . ولو قد استعمل الوحش ضدكم مخلبيه الأماميين والخلفيين جميعاً لفتك بكم فتكا ذريعاً ؛ ولكنا شغلناه عنكم فلم ينلكم منه إلا مخلب أو مخلبان فنجوتم .

الدب :— إذا كنت تقصد بقولك تلك الأجزاء من الأرض المقفرة التى غزاها فقد كان ذلك حقًّا ، ولكن كان باختيارنا وطوع إرادتنا حين ارتددنا عنها وتركناها يمسحها جيئة وذهاباً أكثر من مرة . ولكنه لم يستطع أن يغزو قلب الروسى قط . فليس فى العالم كله مثل الروسى فى صدق العزيمة وقوة التصميم والاعتماد على النفس فى أوقات الشدة . وأظن أن العالم سيتحدث جيلا بعد جيل عن بطولتنا فى موقفنا إزاء الوحش ؛ فقد قمنا بأعظم مجهود عرفه التاريخ فى سبيل التحرر ، وكسر شوكة ذلك الوحش الجبار الذى فرض كلمته على الغابة كلها قرابة خمسة أعوام .

الأسد :— اذكر أنك لم تكن وحدك ضد الوحش .

الدب :— أتريد أن تقول إنه لولا مساعدتكم لوهن موقف روسيا أمامه . ألا فلتعلم أن الماديات وحدها لا تكسب الحرب ، وإنما المعول على القوة الروحية وعلى الأعصاب الفولاذية التى يتحصن بها الشعب جميعه فى كفاحه وتصميمه . وإنى لجد فخور بما أظهرته حكومتى من حسن تدبير وبعد نظر ؛ فقد نفذنا منذ سنة ١٩٢٩ مشروع السنوات الخمس مرتين ، واستطعنا بتضحياتنا أن نحول روسيا الزراعية إلى بلاد صناعية هائلة ، فأسسنا المصانع الكبرى للإنتاج الحربى والاقتصادى ، وضللنا خبراءكم وخبراءهم وأعوانكم وأعوانهم ، وأخفينا مصانعنا فى بطون جبال الأورال بمنأى عن الأنظار وبمأمن من العدو . ولولا إنتاج هذه المصانع السرية ما أجدت علينا مساعداتكم شيئاً ولا أغنتنا فتيلا . ولقد توقعنا أنكم سترتبكون فى سياستكم وستخلطون وتتخبطون ، وأن أنفسكم الأمارة بالسوء ستوحى إليكم أن تغدروا بنا فتصرفوا أنظار الوحش عنكم إلينا وتوجهوه

ضدنا ، ينفرد بنا ، وإذ ذاك يحلو لكم أن تروا أعداءكم يتطاحنون وأنتم بمنجاة . ولا بد أن تكونوا قد قدرتم أن ينتصر الوحش علينا لفرط غفلتكم وظنكم به القوة ، وحينئذ ينجو العالم مما تسمونه شر الشيوعية ، ويخرج الوحش النازى منهوك القوى فلا يجسر على مهاجمتكم . ألم تهللوا فى سنة ١٩٣٨ لاتفاق ميونيخ ؟ ألم تدق أجراس الكنائس فى بلادكم شكراً لله على خلاصكم من الوحش ؟ فهلا فكرتم حينذاك فى مصيرنا ! وهلا دعوتمونا إلى مشاركتكم ! ألم نكن خليقين بمقعد خامس معكم إلى جانب فرنسا وإيطاليا ؟

إن الأمر لواضح وضوح الشمس . لقد قررتم إنقاذ جلودكم ؛ لتدعونا طعما شهيا للوحش .

الأسد :— الغلطة الكبرى التى ترتكبونها الآن هى التى ارتكبها الوحش من قبلكم . إنكم تظنون حبنا للسلام ضعفا ، وتحسبون رغبتنا فى المسالمة جبناً . إننا قوم طبعنا على تعشق الحرية الفردية ، وإنا لمقت الحرب أشد المقت ، ونكره التسلط فى كل مظاهره . فنحن لا ندين كغيرنا بالخدمة العسكرية الإجبارية ولا نبرر قيام الجيوش والقواد العسكريين إلا فى الظروف القصوى . لذلك ترونا نتعثر ونرتبك ؛ وقد تصيبنا الهزيمة فى أول الأمر كلما اشتركنا فى حرب مفاجئة ؛ حتى إذا تأملنا فى جو الحرب ومرنت عليه نفوسنا وعقولنا وصممت عليه عزيمتنا وإرادتنا ، بذلنا أقواتنا وضحينا بأرزاقنا وأعمالنا وسخّرنا للحرب بحوثنا وإنتاجنا ومعاملنا ومصانعنا ، وكل ما نملك من قوى مادية ومعنوية ؛ فإذا نحن أمة قد خلقت خلقاً جديداً . وما هى إلا فترة تطول أو تقصر حتى يتحول اليأس بأساً ، وتستحيل الهزيمة نصراً مبيناً .

لذلك أؤكد لك أيها الصديق أننا كنا صادقين فى ميونيخ ، مخلصين فى حب السلام إخلاصاً دفعنا إلى أن نبذل فى سبيله من عزتنا وكبريائنا بل من شرفنا فى نظر أصدقائنا .

الدب :— ولماذا كل هذه التعمية وهذا التضليل ؟ قل بالصراحة إنكم لم تكونوا مستعدين للحرب ، وإنكم آثرتم شراء السلم فى سنة ١٩٣٨ بأى ثمن حتى تأخذوا أهبتكم للحرب ، وتحاولوا اللحاق بالوحش الذى سبقكم وتفوّق عليكم

درجات فى استعداداته . قل بالصراحة إن نفوسكم كانت خائرة ، وإن قلوبكم قد ملئت رعباً من الوحش . لقد كنا نعلم عنكم هذا وأكثر منه ؛ ولذلك لم نلق بالاً إلى بعثتكم السياسية حين بعثتموها إلينا فى أحرج الساعات تطلبون بها معونتنا .

الأسد :— لا . بل نطلب بها محالفتكم محالفة حرة ؛ لندرأ بالجهد المشترك خطر الوحش .

الدب :— حقًّا إنكم لدهاة فى السياسة ، ولديكم معين لاينضب من المصطلحات التى تكسون بها أغراضكم ؛ فتارة تسمونها محالفة ومعاهدة ، وطوراً تسمونها انتدابا أو وصاية ، وحينا تسمونها مجالس أمن أو دفاع مشترك — وكلها فى الحقيقة أغطية شفافة تحاولون بها أن تستروا أجساد أنانيتكم العارية .

لقد أردتم بمحالفتنا أن تتخذونا مخلب القط تلتقطون به من النار ثمر القسطل ، فتعرضوننا لضربة العدو ودفعته الأولى . وماذا كان يهمكم من أمر انتصارنا أو هزيمتنا وأنتم فى الغرب ونحن فى الشرق ؟ !

لذلك قابلناكم بسلاح من نوع سلاحكم ، فماطلناكم وأغويناكم ، وفتحنا باب المفاوضات مع العدو ، ووضعنا على رأس خارجيتنا وزيراً جديداً هو مولوتوف الذى عرفتموه اليوم جيداً ، ليدير دفة السياسة الجديدة . وكانت طَلِبَةُ الوحش منا أن نلزم الحيدة إذا مانشبت الحرب ، وهى طلبة فى الغاية من السهولة إذا قيست بما عرضتموه علينا ، فقبلنا محالفته ورددنا كيدكم إلى نحوركم . وانتفعنا بمحالفة الوحش وهو منتش بخمرة النصر ، فضممنا دول البلطيق التى كانت جزءًا لا يتجزأ من أرض الوطن قبل الحرب العالمية الأولى ، واستردنا بسارابيا من رومانيا ، وعدنا إلى حدودنا القديمة فى بولندة ، وحاربنا فنلندة التى كانت تهدد لنينجراد . ولما آنسنا من الوحش الغدر والشروع فى الانتقاض علينا ، دبرنا أمورنا سرًّا فجهزنا معاملنا ، وعقدنا مع التنين اليابانى معاهدة الحيدة إذا هوجمنا ، فكانت ضربة سياسية بارعة أفسدت على الوحش مارسمه . خطط لاغتيالنا .

أرأيت أيها الأسد أن الدب لايقل عنك فى براعته السياسية ، وإنما الفرق بينى وبينك أنك خبيث وأنى صريح .

الأسد : — علم الله أنى لست خبيثا ، ولا أضمر الشر لأحد فى العالم. والخبث من شيم الضعفاء الذين تنقصهم الخبرة وحسن سياسة الأمور . وما كان نجاحى وما بلغته من مكانة فى الغابة نتيجة لمكر أو خبث وُصِمتُ به ظلما ، ولكن الظروف واتتنى ، وخدمتنى المصادفات السعيدة فى مختلف أرجاء الغابة . وإنى لأكره أن أتكلم عن نفسى ، ولكن مادمت تدفعنى إلى ذلك فإنى أقول لك : إن الحظ + الشجاعة + الأخلاق = النجاح . فاحفظ هذه المعادلة .

وإذا كنت قد اخطأت كسائر البشر فى تقدير موقفكم قبيل الحرب الأخيرة فاعلم أنى وسكان الغابة جميعا كنا نعتقد جازمين أن ثورتكم قد هدّت من كيانكم وضعضعت نظامكم ، وقللت من حماسة رجالكم ، وأنكم إذا جد الجد لا تقوون على الوقوف أمام الوحش طويلا ، فلا يلبث أن يكتسحكم كما اكتسح غيركم من قبل .

ومن ذا الذى كان يظن أن نظاما أو تجربة كالبلشفية تستطيع أن تنتج مثل هذه المعجزة ؟

الدب :— يلوح لى أنك تنتقص فضل البلشفية وتسخر منها وتظن بها الظنون . وليس هذا بمستغرب منك ؛ فدولتكم تقوم على سيادة أصحاب رءوس الأموال وإن كنتم تسمونها ديمقراطية .

الأسد :— ودولتك تقوم على الدكتاتورية أو الفاشية ، وإن كنتم تسمونها حكومة الشعب .

الدب :— أتقول الفاشية ؟ هذه سبة ، ولست أسمح لك مطلقا أن تنتقص من قدر حكومتى ، وسأعلمك كيف تحترم . . .

وهنا حاول الدب أن يمد مخلبه ، فقام الأسد غاضبا وقال :

الأسد :— كنت أظن أن محادثتنا ستنتهى كما بدأت فى اتزان وروية وحسن قصد متبادل . فأما وقد تقمصتك طباع الوحش الذى هزمناه ، فإنى ذاهب لعرض أمرى وأمرك على مجلس الغابة .

الدب :— إنى آسف . . .

الأسد :— حبذا هذه اللهجة ! ولست أدرى لماذا لا نصطنعها فى أثناء مناقشاتنا فى المؤتمرات واللجان التى نعقدها .

الدب :— دع العواء والزئير للمؤتمرات ، ولنكن الآن فى هدنة علمية وإلى اللقاء .

محمد رفعت